

مع إحساس مرهف بتجربة الوضع التي طالما سمعت الأمهات يتحدثن عن آلامها ومخاطرها «وإن كانت تُحدث أنها لم تجد حين حملت به ما تجده الحوامل من ثقلٍ ولا وَحْمٍ»^(١) لكنها ما لبثت أن صرفت بالها كله إلى ما يغمر الدنيا حولها من نور بازغ، وصرفت سمعها كله إلى هواتف البشرى، فتجلدت للحظة الحاسمة.

وما كاد نور الفجر يهل على الأفق، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل والدة من البشر.

وتألفت دنياها نوراً وأنساً، وهى ترنو إلى وليدها المبارك، وتذكر به أباه الحبيب الذى أودعها إياه ثم ودعها ورحل...

* * *

وكانت مكة حين ذاعت فيها بشرى مولد ابن عبد الله، ما تزال تحتفل بما أتاح الله لها من النجاة من أصحاب الفيل، من حيث لا تحتسب، فرأى القوم فى مولد محمد آنذاك، آيةً تذكر بأخرى، يوم اختير أبوه عبد الله قريباً لرب الكعبة، ثم افتدى بالإبل المائة.

وإن لم يتوقع أحد فى مكة، أو فى الدنيا كلها يومئذ، أن تلك الليلة المقمرة الغراء من شهر ربيع الأول عام الفيل، التى وُلد فيها الوف والوف من سنى الأجناس والألوان ومختلف الملل والمذاهب ومتفاوت الطبقات والدرجات، قد خلدت وبوركت بمولد يتيم هاشمى فى أم القرى، ابن امرأة من قريش تأكل القديد، يُصطفى للنبوة فتكون رسالته ختام رسالات الدين كله، وتغدو أقواله وأفعاله وتقريره، سُنَّةً وشريعةً للملايين الناس على امتداد الزمان والمكان...

* * *

(١) أسنده ابن عبد البر فى الاستيعاب، كتاب النساء، والطبرى فى (التاريخ) عن عثمان بن أبى العاص عن أمه «أم عثمان الثقفية - واسمها فاطمة بنت عبد الله - وقد حضرت مولد المصطفى الهاشمى. مع (الروض الأنف: فصل فى المولد)